الأصول الكبرى

الرؤية الكونية الإسلامية

وإجاباتها على الأسئلة الوجودية

تأليف

أحمد سالم

كيف يرى الإسلام العالم؟ وكيف ينبغي أن تكون رؤية المسلم للعالم، تلك الرؤية التي تشمل الوجود والقيم والسلوك جميعًا؟

هذا الكتاب عن الرؤية الكونية: وهو يدور حول أهم القضايا المتعلقة بالإنسان ككائن يحيا على هذه الأرض، كقضية الوجود وحقيقة الإنسان والكون وعلاقته به، وغير ذلك مما ينتناوله بالدلائل القطعية والعقلية، بعيدًا عن الجدالات العقيمة الّتي تتناول رؤية العالم من منظورات فلسفيَّة أو خرافيَّة هي بطريقة أو بأخرى تتجاوز المنظور الواقعيَّ للعالم.

يأتي هذا الكتاب لدراسة الجزء الأكثر أهمية وشمولية والمتعلقة بحياة الإنسان والغاية من خلقه ومصيره والخير والشر والموت والحياة والسلوك الصحيح وما يتعلق بالمعرفة وكل هذه القضايا المحورية المهمة الأكثر التصاقا بوظيفة العبودية وذلك مضمون الدراسة.

وقد انقسمت هذه الدراسة إلى بابين، وكل باب يحتوي على عدة فصول:

الباب الأول: وهو رؤية العالم من المنظور الإسلامي أو الواقعي، وفيه:

- مدخل إلى تعريف رؤية العالم
- ما هي طبيعة العالم؟
- كيف خلق الله جل جلاله هذا العالم؟
- ما الغاية من خلق العالم؟ وما هو الخير والشر؟
- ما المصير الذي ننتهي وينتهي إليه العالم؟
- ما هو السلوك الصحيح؟
- ماذا عما يتعلق بالمعرفة في الرؤية الإسلامية

أما الباب الثاني: ففيه إجابة للأسئلة الوجودية الكبرى انطلاقا من الرؤية الإسلامية للكون، مشتملا على 3 مباحث:

- المبحث الأول: عن الخالق سبحانه وتعالى
- المبحث الثاني: عن الدين
- المبحث الثالث: الرسول

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة

مقدمة ٧
مدخل إلىٰ تعريف رؤية العالم ١٣
أسئلة رؤية العالم ١٧
وظائف رؤية العالم ١٨
الفصل الأول: الإجابة الإسلامية علىٰ أسئلة الرؤية الكونية الستة ٢٩
السؤال الأول: ما طبيعة عالمنا؟ ولماذا يوجد شيء بدلًا من شيء آخر؟ ٣١
السؤال الثاني: كيف نشأ العالم؟ ٤٧
السؤال الثالث: ما المصير الَّذي ننتهي وينتهي العالم إليه؟ ٦١
الأحداث الكبرىٰ التي ستقع في الآخرة ٩٧
السؤال الرابع: ما الغاية من خلق العالم؟ وما هو الخير؟ وما هو الشَّرُّ؟ ١٠٩
السؤال الخامس: ما هو السُّلوك الصَّحيح من وجهة نظر الشَّريعة الإسلاميَّة؟ ١٢٥
السؤال السادس: ماذا عمَّا يتعلَّق بالمعرفة في الرُّؤية الإسلاميَّة للعالم؟ ١٤٣
الفصل الثاني: إجابة الأسئلة الوجودية الكبرىٰ انطلاقًا من الرؤية الكونية الإسلامية ١٧٣
المبحث الأوَّل: الله ﷻ ١٧٥
ما معنىٰ كلمة «الله»؟ ١٧٥
المبحث الثاني: الدِّين: (١) ما هو «الدِّين»؟ ٢٣٥
المبحث الثالث: الرَّسول: ما معنىٰ كلمة رسول أو نبيٍّ؟ ٢٦١

عينة للقراءة

الموضوع	الصفحة

النظام الإسلامي القيمي والأخلاقي ٣١٣
مفهوم القيم في الرؤية الإسلامية ٣١٥
دلالة المصطلح ومعانيه ٣٢٣
مصادر القيم الإسلامية ٣٣٠
خصائص القيم الإسلامية مقارنة بقيم الحضارات الأخرىٰ ٣٣٨
تفاصيل النظام القيمي والأخلاقي الإسلامي ٣٥٥
نماذج من الفضائل والقيم الإسلامية ٣٧٨
المسئولية والجزاء ٤٠٤
الخاتمة ٤٣٥
قائمة قراءة للتوسع ٤٤٠

عينة للقراءة

مُقَدِّمَة

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ﴾، الحمد لله عظيم الإنعام والامتنان علىٰ خلقه بإنزال القرآن العظيم الذي لا اعوجاج فيه ولا خلل، ليخرج به الناس من الظلمات إلىٰ النور ويبين لهم فيه العقائد، ويحذرهم من الضلال وما يضرهم، ويدلهم علىٰ ما فيه نفعهم وهدايتهم للحق فهو من النعم العظمىٰ علىٰ الخلق فالحمد لله رب العالمين.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له المُلك وله الحمد يُحيِي ويُميت وهو علىٰ كل شيء قدير، أول بلا ابتداء، دائم بلا انتهاء، لا يَفنَىٰ ولا يبيد، لا تبلغه الأوهام ولا تدركه الأفهام، ولا يشبه الأنام، حي لا يموت، قيوم لا ينام، خلق كل شيء فقدَّرَه تقديرًا، صاحب الخَلق والأمر، فكما أنه سبحانه لا خالق معه، فكذلك لا آمر معه، خلق هذا الكون المشهود بما فيه واستعلىٰ عليه يدبره بأمره ويصرفه بقدره، بكرمه أنعم علىٰ خلقه فلم يحصوا لنعمائه عدًا، وبفضله غفر للتائبين وإن جاءوا شيئا إدًا، يعطي فضلًا ويبتلي عدلًا، سخَّر لعباده الكون بما فيه ليهيئ في الأرض نظامًا متكاملًا متوازنًا يعج بالحياة بكافة أنواعها حتىٰ تكون علىٰ استعداد تام لاستقبال هذا الإنسان الذي استخلفه الله في الأرض، والتسخير يشمل دوران الأرض حول الشمس في مدار مناسب تمامًا وما يترتب عليه من إمداد الأرض بالطاقة وتنظيم الليل والنهار، وذلك بحيث

عينة للقراءة

أن هذا المدار لو اتسع قليلًا لتجمَّدت الأرض ومن عليها ولو انكمش قليلًا احترقت الأرض وقاطنيها، كما أن دوران القمر حول الأرض له أهمية بالغة في استقرار الأرض ودرجة حرارتها حتىٰ تكون مستعدة لاستقرار الحياة فيها، وأما النجوم فلها دور عظيم في الملاحة بأنواعها علىٰ مستوىٰ الأرض ودور أعظم في الحفاظ علىٰ استقرار الكون وموازنة التوسع المستمر بتجاذبها المتبادل بعضها لبعض، قال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [النَّحۡل: ١٢]. وقال سبحانه: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِي ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَلَا هُدٗى وَلَا كِتَٰبٖ مُّنِيرٖ﴾ [لُقۡمَان: ٢٨]. وقال تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجَاثِيَة: ١٣]. فما أعظم نعم الله تعالىٰ علىٰ خلقه.

وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، وصفيه وخليله وصفوته من خلقه، إمام الأنبياء وخاتمهم، وسيد الأتقياء، المبعوث رحمة للعالمين بالحق والهدىٰ والنور والضياء، بلغ الرسالة وأدىٰ الأمانة، ونصح الأمة، وكشف الغمة، وجاهد في الله حق الجهاد، فتركنا علىٰ المحجة البيضاء ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك، فما أشقىٰ من أعرض عن هديه، واحتذىٰ بغير نهجه!

أما بعد؛

إن طرح الأسئلة باب واسع وفسيح وقد يكون هذا الباب هو بداية الطريق للوصول إلىٰ الحقيقة بدون زيف أو تضليل، وسط التدافع بين الحق والباطل، وقد أقام الله ﷻ علىٰ الحق البراهين وجعلها كالنُّجوم

عينة للقراءة

الساطعة التي لا يرتاب أحد في وجودها، وأظهر كذب المبطلين وجهلهم وضعف حجتهم، وقذف الحق علىٰ الباطل فدمغه، واشترط علىٰ طالبيه الصبر، وكشف لهم عن رؤوس الفتن وما سيعاينونه وسط هذا الصراع بين الحق والباطل، وهذا الصراع ليس وليد اليوم، فهو ممتد في عمق التاريخ، مقارن لخلق آدم ﷺ أبي البشرية وحسد إبليس له لرؤيته أنه أفضل منه، وقد توعد أن يفتنه وذريته، فقال فيما حكاه عنه رب العزة ﷻ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سُورَةُ صٓ: ٨٢]. ولا تزال سنة التدافع بين الحق والباطل قائمة إلىٰ يوم القيامة ما وُجِد الباطل، وهذا التدافع قائم في الأساس لأن من الخَلق من يعرف الحق ثم يرده ويخاصمه ويتكبر، وتظهر له دلائله ثم يدفعها ويتعامىٰ عنها، اتباعًا لهواه وإيثارًا للدنيا علىٰ الآخرة، والنفس البشرية بين هبوطٍ في مستنقع العند والجحود أو علوٍ إلىٰ معاني التواضع وقبول الحق وصحة الفهم وحسن القصد، وعلىٰ المرء أن يكون ذا بصيرة ورؤية حتىٰ لا يخدعه باطل مبهرج أو يثقل عليها حق واضح فينوء بحمله ويتركه.

وبجانب البصيرة، يجب علىٰ المرء قبل أن يسمع أو يقرأ لأحد من المهم أن يعرف توجه المؤلف: الوضعي، أو الديني، أو السياسي، لأنه يشرح لك ويساعدك في فهم تصوراته وتقريراته ومنطلقاته في تحليل القضايا والحكم عليها، حتىٰ لا تخدع.

وموضوعنا في هذا الكتاب هو رؤية العالم: وهو من أهم القضايا المتعلقة بالإنسان كقضية الوجود وحقيقة الإنسان والكون وعلاقته به، وغير ذلك مما سنتناوله في هذا الكتاب لطبيعة العالم وبالدلائل القطعية والعقلية، بعيدًا عن الجدالات العقيمة الَّتي تتناول رؤية العالم من

عينة للقراءة

منظورات فلسفيَّة أو خرافيَّة هي بطريقة أو بأخرىٰ تتجاوز المنظور البسيط الواقعيَّ للعالم.

أهمية الدراسة:

تنحصر أهمية موضوع دراستنا في جملة من الأسباب وهي:

- دراسة الجزء الأكثر أهمية وشمولية والمتعلقة بحياة الإنسان والغاية من خلقه ومصيره والخير والشر والموت والحياة والسلوك الصحيح وما يتعلق بالمعرفة وكل هذه القضايا المحورية المهمة الأكثر التصاقا بوظيفة العبودية وذلك مضمون الدراسة.

وقد انقسمت هذه الدراسة إلىٰ بابين وكل باب يحتوي علىٰ عدة فصول:

- **الفصل الأول: وهو رؤية العالم من المنظور الإسلامي أو الواقعي، وفيه:**
  - مدخل إلىٰ تعريف رؤية العالم.
  - ما هي طبيعة العالم؟
  - كيف خلق الله ﷻ هذا العالم؟
  - ما الغاية من خلق العالم؟ وما هو الخير والشر؟
  - ما المصير الذي ننتهي وينتهي إليه العالم؟
  - ما هو السلوك الصحيح؟
  - ماذا عما يتعلق بالمعرفة في الرؤية الإسلامية؟

عينة للقراءة

- **أما الفصل الثاني: ففيه إجابة للأسئلة الوجودية الكبرىٰ انطلاقا من الرؤية الإسلامية للكون، مشتملا علىٰ ٤ مباحث:**

- المبحث الأول: عن الخالق ﷻ.
- المبحث الثاني: عن الدين.
- المبحث الثالث: الرسول.
- المبحث الرابع: النظام الإسلامي القيمي والأخلاقي.

عينة للقراءة

مدخل إلى تعريف رؤية العالم

«رؤيةُ العالم» في الأصل، مصطلحٌ فلسفيٌّ نحته الفيلسوف الألماني (فلهلم دلتاي ١٨٣٣-١٩١١م)، **واعتبره بحثًا في فلسفة الفلسفة وموضوعه**: التصورات الأساسيةُ للإنسان، والتي يعتبرها مطلقةً في سَرَيانها وشمولها، وفي دلالاتها وتأثيراتها في الحياة الإنسانية. وبتعدد بني آدم وتعدد منطلقاتهم الدينية والفلسفية تولدت **رؤًى للعالم**، وليست رؤية واحدة، وهي **رؤىٰ متداخلة وأحيانًا ما تكون متضاربةٌ** بين اللاهوت والميتافيزيقا والفنون والفلسفة، والتي تتوخّىٰ جميعًا كشف مفهوم الحقيقة. وتلك الرؤىٰ ليست مقيدة بالزمان والمكان وحسْب؛ بل تتأثر بكافة السياقات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، وهذا التنوع والاختلاف لا يلغي ما بينها من المشتركات، والتي نراها -كمسلمين- نابعة من الدين الأول القديم الذي تم تحريفه، وكلما أرسل الله ﷻ رسله لمداواة هذا التحريف عاد فريق من بني آدم فحرفوه وبدلوه.

ويمكننا تعريف رؤية العالم بأنها: مجموعة متجانسة من المفاهيم تسمح لنا بصياغة تصور كوني عام للعالم وفهم لأكبر عدد ممكن من عناصر خبراتنا وتجاربنا.

أو هي: قالب وصفي تحليلي شمولي، للكون والحياة، يجيب علىٰ سؤال: «ما هو»، وسؤال: «كيف ينبغي أن يكون».

عين للقراءة

وعلىٰ ذلك: فكل منظومة فلسفية أو دينية تمثل رؤية كونية مستقلة[١].

يشرح فيلسوف الحضارة الألماني ألبرت شفايتزر هذه الدلالات حول النظرة إلىٰ العالم ناحيًا بها منحًا اجتماعيًّا، إذ يرىٰ أنها «مضمون أفكار المجتمع والأفراد الذين يؤلفونه: أفكارهم عن الطبيعة، وعن موضوع العالم الذي يعيشون فيه، وعن مكانة الإنسانية والأفراد ومصيرها» إنها في رأيه إجابة عن سؤالات الهوية وعلاقتها بالعالم، والفاعلية وعلاقتها بالمجتمع، والمسئولية وعلاقتها بالكون: «ما معنىٰ المجتمع الذي أعيش فيه؟ وما معنىٰ ذاتي أنا نفسي في هذا العالم؟ وماذا نريد أن نفعل في العالم؟ وماذا نؤمل أن نحصل عليه منه وما واجبنا تجاهه»[٢].

ويقول هيجل: «تقتضي رؤية العالم نوعًا من الموقف العملي غير المؤقت، إنه موقف دائم تجاه العالم وتجاه الوجود الإنساني الخاص، يشكله الإنسان نفسه ويقوم بتملكه»[٣].

فرؤية العالم هي:

- مصطلح فلسفي حديث يعني النّظرة الشاملة إلىٰ العالم التي تأخذ جميع الأجزاء والعناصر والمكونات والنّظم بالحسبان.
- ورؤية لحقائق الأشياء في إطارها الأشمل، وهي قواعد وأطر مرجعية للفكر والسلوك ضمن نظام القيم العام للمجتمع.

(١) بواسطة: عفاف بنت محمد الهدلق، الرؤية الكونية الداروينية، مركز تكوين، (١/ ١٩).
(٢) بواسطة: عفاف بنت محمد الهدلق، الرؤية الكونية الداروينية، مركز تكوين، (١/ ٢٠).
(٣) بواسطة: محمد شوقي الزين، «رؤية العالم ونظام الثقافة»، دار الروافد، (ص/ ٤٩).

عينة للقراءة

- والصورة التي يدرك فيها العقل الإنساني حقائق الكون والحياة والإنسان.

- **وإجابات الأسئلة الوجودية والمعرفية والقيمية بخصوص هذه الحقائق»**[١].

أسئلة رؤية العالم

تتشكل رؤية دين أو فلسفة أو شخص ما للعالم من خلال إجابته عن مجموعة من الأسئلة الكبرىٰ، وهي:

السؤال الأول: وهو سؤال الوجود (الأنطولوجيا)، أو نموذج الواقع، والذي يمكن التعبير عنه بسؤال «ماذا؟»، وينطوي هذا السؤال علىٰ عدد من التساؤلات مثل: **ما طبيعة عالمنا الذي نعيش فيه؟ ما هي تركيبته؟ وكيف يتم توظيفه؟ ما علة وجود شيءٍ معين وعلة انتفاء وجود شيء آخر؟ وغيرها . . .**

أما السؤال الثاني: فيقدم تفسيرًا للمكون الأول: **لماذا أصبح شكل العالم علىٰ ما هو عليه الآن، ولم يتخذ شكلًا مختلفًا؟ وما هي المبادئ التفسيرية العامة التي يمكن تطويرها؟ كيف نشأ العالم؟ ومن أين نشأ؟**

والإجابات علىٰ مثل هذه التساؤلات لا بد أن تكون قادرة علىٰ تفسير كيفية وأسباب وجود الظواهر المختلفة؛ ولا يخفىٰ أن هذا التفسير يعتمد علىٰ الماضي والأحداث السابقة.

---

(١) فتحي حسن ملكاوي، منهجية التكامل المعرفي، مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الاسلامي، (ص/٤٤).

ويأتي السؤال الثالث ليكمل سابقَه؛ فإذا كان السؤال الثاني معنيًّا بالماضي والأحداث السابقة، فهذا السؤال معنيٌّ بالمستقبل: **إلىٰ أين؟ ما هو مصير الحياة في هذا الكون؟ وإلىٰ أين سنذهب بعده، وهو ما يندرج تحت سؤال البعث والنشور والحساب والجزاء.**

ويمثل هذا التساؤل مبحث المستقبليات؛ لأنه معنيٌّ باللواحق والنتائج المستقبلية المحتملة، تلك الاحتمالية التي تحمل في طياتها إمكانات الاختيار بين النتائج، والترجيح بين البدائل لتطوير بعضها والدفع بها قُدمًا، وتحاشي البعض الآخر وتنحيته جانبًا.

ومن ثَمَّ تأتي أهمية السؤال الرابع الذي يؤكد علىٰ الجانب القيمي في تساؤلات رؤية العالم؛ **كيف نثمِّن الحقيقة الكونية العامة؟ ما الذي ينبغي علينا أن نناضل من أجله؟ ما هو الخير وما هو الشر؟ وما هي غاية الحياة؟**

وهي الأسئلة التي تصب في مبحث الأكسيولوجيا (علم القيم)؛ الذي يتضمن الأخلاقيات والأدبيات والجماليات، وعليه، فهذا المكون معنيٌّ في الأساس بإمدادنا بمجموعة التوجهات والدوافع والأهداف الكامنة وراء الأفعال.

وهنا يأتي دور السؤال الخامس ونظرية الفعل، أو مبحث البراكسيولوجيا (علم السلوك): **كيف ينبغي أن نتصرف؟ وما هي المبادئ العامة التي يجب أن تنتظم في ضوئها أفعالُنا؟**

فسؤال العدل وتقريره كقيمة خيرة ينتمي للمبحث الرابع، مبحث القيم، وسؤال ما هو العدل في قسمة الميراث ينتمي للمبحث الخامس هنا.

عينة للقراءة

ويساعد هذا المبحثُ في وضع الخطط وصياغة النظريات الكامنة وراء الأفعال موضع التنفيذ بحسب ما يقتضيه الجانب القيمي، ليُجَسِّرَ بذلك الفجوةَ العميقة بين النظرية والفعل، ويدرأ عن الفلسفة مقولات اللاواقعية والتحليق في آفاق النظرية التي لا تقدِّم الحلول المباشرة للتساؤلات المركزية المهمة.

ويدور السؤال السادس حول نظرية المعرفة (الإبستمولوجيا): **كيف نستطيع صياغة تصورات عن العالم تساعدنا علىٰ الوصول إلىٰ إجابات قاطعة للأسئلة الثلاث الأولىٰ، هل المعرفة ممكنة، وما هي طبيعتها، وما هي مصادرها وكيف يمكننا اكتساب المعرفة؟**

ما التساؤلات الأكثر تجريدية مثل: ما هي الأسس التي ينبغي أن تقوم عليها الاستدلالات الصحيحة والبراهين الناجعة؟ ما هي ملامح الحقيقة والاستنتاج والوجود والضرورة؟ وهي من مباحث علم المنطق أو فلسفة المنطق. كذلك يمكن إضافة إشكالية اللغة إلىٰ هذا المكون: ما هي اللغة التي ينبغي استخدامها لاكتساب المعرفة؟ وما هي حدودها؟

والواقع، أن ثمة سؤالًا سابعًا يمكن أن نصفه بالسؤال الكلي الشامل، وهو: من أين نبدأ لنستطيع الإجابة علىٰ كل الأسئلة السابقة؟ ويدعونا هذا السؤال للوقوف مليًّا أمام الإجابات الجزئية التي يقدمها تاريخ الأفكار والحضارات، لا سيما إذا كنا علىٰ دراية بمناهجها الفكرية وافتراضاتها الكامنة. وتُعد هذه الخطوة ذات أهمية خاصة لبناء فلسفة العالم. وبشكل عام، فإن الأنثربولوجيا الفلسفية وتاريخ الفلسفة يعملان معًا في هذا المستوىٰ الفوقي الشامل، مما يسمح بتحليلاتٍ أوسعَ لتطور رؤىٰ العالم المختلفة.

عينة للقراءة

وظائف رؤية العالم[١]

أولًا: الوظيفة الوجودية أو الكيانية:

الرؤية إلىٰ العالم تقدّم تصورا للوجود وتفسّره وتعطيه أيضًا المعنىٰ والغاية.

فالأصل في التفلسف الذي يتعلق بالعالم هو تعجب الإنسان من المظاهر التي تحيط حوله، وبهذا هي تلبّي حاجة قوية في الإنسان تجعله يمتلك نموذجًا تفسيريًا يفهم به طبيعة الوجود وما ينبغي أن يُعمل فيه؛ إذ: «هي في جوهرها منظومة من الأفكار والمعتقدات، التي يغلب عليها صفة العمومية، والتي تكون فرد أو مجموعة من الأفراد تتعلق بالعالم المحيط بنا، ومكانة الإنسان فيه، والعلاقة بين الإنسان وعالمه، وعلاقة الإنسان بذاته، فضلا عما يتخذه الفرد وفقا لتلك المنظومة من مواقف وآراء وأحكام حيال الكون، والإنسانية والمستقبل»[٢].

إذن فرؤية العالم تفسّر الدورة الوجودية الإنسانية وتقدم أجوبة عن أسئلة المأتىٰ والمسار والمصير، أو الأسئلة الكلية والنهائية، وما يسميه النّقد الأدبي «**الموضوعات الكبرىٰ**».

(١) الجزء القادم مستفاد مع تصرف من كتابات د. عبد الرزاق بلعقروز.

(٢) هاني عبد الستار فرج، مفهوم الرؤية الكلية منظور فلسفي ومضامين منهجية، ضمن مؤتمر الرؤية الإسلامية وانعكاساتها علىٰ التربية، مركز الدراسات المعرفية، http://www.epistemeg.com/collection.php?page=18.

عينة للقراءة

• **ومن نماذج الأسئلة التي يتم طرحها هنا في هذا المقام:**

١- علاقة الإنسان بالطبيعة (المادة)، وأيهما يسبق الآخر: هل الإنسان جزءٌ لا يتجزأ من الطبيعة (المادة)، أم هو جزء يتجزأ منها وله استقلاله النسبي عنها؟

- هل الإنسان وجود طبيعي (مادي) أم أنه بأبعاد أخرىٰ لا تخضع لعالم الطبيعة (المادة)؟

- هل يتسم الكون بالثنائية أم تسود فيه الواحدية؟

- هل الإنسان سابق للطبيعة (المادة)، متجاوز لها؟ أم أنها سابقة عليه، متجاوزة له؟

٢- الهدف من الوجود: هل هناك هدف من وجود الإنسان في الكون؟

- هل هناك غرض في الطبيعة أم أنها مجرد حركة دائمة متكررة، حركة متطورة نحو درجات عليا من النمو والتقدم، أم حركة خاضعة تمامًا للمصادفة؟

- ما المبدأ الواحد في الكون، وما القوة المحركة له التي تمنحه هدفه وتماسكه وتضفي عليه المعنىٰ؟ هل هو كامن فيه أم متجاوز له؟

٣- مشكلة المعيارية: هل هناك معيارية أساسية؟ ومن أين يستمدُّ الإنسان معياريته: من عقله المادي أم من أسلافه أم من جسده أم من الطَّبيعة (المادة) أم من قوىٰ متجاوزة لحركة المادة؟»[1].

(1) http://eiiit.org/resources/eiiit/eiiit/eiiit_article_read.asp?articleID=604&catID=21&adad=30

عينة للقراءة

وتتولّد عن هذه الأسئلة أجوبة مخصوصة تقدم دلالات ومعاني للأشياء، وهي كما نرىٰ ليست أسسًا جزئية تتعلق بتفسير ظاهرة جزئية كإرجاع سبب الحياة إلىٰ الماء أو سبب الحركة إلىٰ الريح، وإنما تؤسس لهذه الظواهر جميعًا، أو تجيب عن أسئلة أساسية أو اقتصادية: ما هي أسباب الاستبداد السياسي؟ ما هي أسباب الأزمة الاقتصادية؟

ثانيًا: الوظيفة المعرفية:

من المعتاد في مباحث المعرفة الكلام عن طبيعة المعرفة؟ هل هي مادية أم حسية أم عقلية؟ هل مصدر المعرفة هو هذا الواقع الحسي المحكوم بقوانين أو سنن؟ أم أن ثمة مصادر أخرىٰ تتجاوز القدرة البشرية وتتحدّاها قد تكون في الوحي مثلا؟ ما الغاية من المعرفة؟

هل هي غاية محدودة بالعالم المادي الذي يُعرف من أجل أن يُمْتلك ويُسيطر عليه؟ أم أن غاية المعرفة هي تعظيم مقاصد أخرىٰ كتعظيم الخالق ﷻ في النّسق المعرفي الإسلامي؟

لا يمكن للإجابة عن هذا السؤال أن تتحدّد في إطار معرفي فقط، وإنما المعرفة هي جزء من بنية كلية، يتحدَّد أسلوبها بناء علىٰ حقيقة الرَّؤية الوجودية، فأسلوب المعرفة موصول -وكافة الأسئلة المتعلقة بنظرية المعرفة- بتصور الموجودات في العالم، وهكذا فرؤية العالم تقدم محدّدات وأجوبة لأسئلة المعرفة، فإذا كانت الرؤية للموجودات مادية، فمن غير الاتساق الكلام في معرفة يكون القصد منها اكتشاف قوانين الله جَلَّ جَلاله في الكون.

عينة للقراءة

ثالثًا: الوظيفة القيمية

نواصل ضمن هذا التحليل الكلام عن مسألة القيم المرجعية باعتبارها أحد ركائز النماذج الحاكمة، فهي بدورها في اتساق مع تصور الموجودات وأسلوب المعرفة وكافة الأسئلة المحيطة بهما، فنظرية القيم بمختلف أصنافها تجري عليها أحكام رُؤية العالم، وتدخل عليها في كل عناصرها وأسئلتها:

١- ما مصدر القيم؟

٢- هل ثمة قيم مطلقة أم كل القيم نسبية؟

٣- هل الفعل الخُلقي ممكن أم مستحيل؟

٤- علىٰ أي شيء نؤسس منظومة قيمنا؟ هل العقل وحده كاف في هذا التأسيس؟ أم أن المنفعة التي يجلبها هذا السلوك علىٰ الذات هي الأقوىٰ؟ أم لا هذه ولا تلك، بل يتحدد معيار الفعل الخُلقي بما يعود علىٰ الذّات من قوة وقدرة علىٰ التّحكم والاستقواء علىٰ الآخرين؟

٥- هل غاية السلوك الخلقي عمودية محضة؟ أم أنها غاية أفقية تخترق الجدار المادي لكي تتصل بأفق القداسة وتؤمن بعالم آخر؟

وأية إجابة عن سؤال من هذه الأسئلة ستحدّد طبيعة رؤية العالم، فإذا كان مصدر القيم الأخلاقية والجمالية متجاوز للإنسان، حينها نجد الإنسان لديه معايير خارجة عن ذاته يمكنه من خلالها التّمييز بين العدل والظلم وبين الخير والشر، أما إذا كان مصدر القيم مستمدًا من مناهج تنتمي إلىٰ عالم الأرض وليس إلىٰ عالم السماء، فإن طبيعة العلاقة بين الإنسان وما حوله في الكون ستتغيّر، مثال ذلك المعيار البرجماتي

أو الدّاروينيي في تصنيف القيم أو في بيان أساسها «فكلاهما متحرّر من القيم الإنسانية والأخلاقية والدّينية، وكلاهما يجعل من البقاء المادي الهدف الأساسي في الحياة، وكلاهما نتاج عالم هيمنت عليه النّسبية الشاملة، وبسبب غياب المعايير وبسبب التحرُّر من القيمة تصبح القوة وسيلة واحدة ووحيدة لحسم الخلافات»[(١)].

في حين أن القيمة من حيث المفهوم والمضمون لا تستمد وجودها من تعيّنها الواقعي، وإنما من مرتبتها الوجودية المثالية، «فلئن كانت القيمة في مستواها المثالي هي التي تمنح المادة التي يتحقق فيها الفعل الأخلاقي قيمته، فهي بالتالي منفصلة عن تلك المادة، ووجودها المثالي ليس رهينا بوجود تلك المادة التي تتعيّن فيها، وإن الإنسان ككائن أخلاقي ليس له القدرة في إعطاء تلك القيمة قيمتها، وإنّما هو الذي عن طريق سعيه قادر أن يجعل تلك القيمة تتعيّن في فعل أخلاقي. إذا فالقيمة منفصلة عنه وليست له القدرة علىٰ منحها معناها، فالتقييم: أي إعطاء القيم قيمتها ليس فعلًا إنسانيًا، ولكن تعيّن القيمة في فعل أخلاقي هو ما يمكن للإنسان أن يفعله، فالقيمة كما ذهب الفاروقي في تحليليه السَّابق للصفات هي الصفات الإلهية، والمدخل إليها هو صفة الإرادة الإلهية»[(٢)].

هنا، يتجلىٰ لنا الوصف الإلهي لمنظومة القيم وأصلها المتعالي، لكن التطبيق الإنساني لها هو النّسبي، والرؤية الثنائية إلىٰ العالم لا ترىٰ

(١) عبد الوهاب المسيري، العلمانية والحداثة والعولمة، سوريا: دار الفكر، ٢٠٠٩، ص٩٣.

(٢) إبراهيم محمد زين، نظرية القيم عند الفاروقي وصلتها بالتكامل المعرفي، مجلة الجامعة، العدد الثامن، ص٦٠.

في القيم مجرّد إجراءات أو وسائل، ولا تخلع عليها أوصاف النّسبية أو الصّيرورة، وإنّما ترفعها إلىٰ رتبة الإطار المرجعي الموجه والحاكم لفعاليات القوة الإنسانية في أنشطتها النّظرية والعملية، لذلك لا عجب أن نجد تصنيفات القيم ترتبط بكافة الفاعليات الإنسانية «فالقيم هي التي تدفع للبحث عن المعرفة، والمعرفة هي التي تحدد متىٰ تتعارض القيم وأيُّ القيم تتعارض، وهنا بالنسبة للرؤية الإسلامية يجب أن ننظر إلىٰ قيمة العلم النافع، والتي ترىٰ أن القيم وعي يؤسس رؤية ومنهج نظر وتعامل وتناول وسعي يترجم الوعي إلىٰ حركة دائمة ومتراكمة وفاعلة ومؤثرة؛ بحيث تسير ضمن النظام المعرفي، وهنا تكون القيم مطلقة في ذاتها ونسبية في تحققها الواقعي، فالقول بنسبية القيم يلغيها، إذ لا يمنحها سوىٰ وجودا وهميا، والقول بمطلقيتها يفصل بيننا وبينها ويجعلها بعيدة عنا، ووفقا للرؤية الإسلامية فإن القيم سارية في كل منظومتها المعرفية؛ فهناك قيم العقيدة وقيم الشريعة وقيم نظام القيم وقيم المقاصد وقيم السنن وقيم الأمة وقيم الحضارة، وبالتالي فإن نظرية القيم هي التي تربط بين نظرية الوجود ونظرية المعرفة»[(١)].

فالقيم هنا ليست مجرّد تأويلات لشروط وجودنا الحيوية، وليست نظامًا في التَّراتب الأخلاقي، وإنما هي معيار ومُوجّه نحو الفكر المستقيم الذي يتقوَّم بناظم متجاوز له، هو الناظم التوحيدي كمعيار كلي ونهائي،

(١) سيف الدين عبد الفتاح، إطار القيم، مدخل مرجعي لدراسة العلاقات الدولية في الإسلام، ضمن ملخصات كتب المعهد العالمي للفكر الاسلامي، مركز الدراسات المعرفية، القاهرة، ص٣٣.

ومعيار إلىٰ السلوك المستقيم أيضًا، وكافة المعايير الأخرىٰ من نفعية ولذّية تندرج كمراتب ضمن هذا الإطار القيمي الكلي الجامع.

فنحن إذن في رؤية العالم وفي مستوىٰ منظومة القيم، أمام معايير متجاوزة وأخرىٰ كامنة، ووظيفة رؤية العالم في هذا المستوىٰ القيمي مدَّ الإنسان بأفكار ومقاييس لكي يزن بها الأفكار والمواقف والسلوكيات، فهي التي تحدد صورة الإنسان المنشود، وتحدد أهداف المجتمع، وتوجه هويته وأساس شبكة علاقاته الاجتماعية.

ثالثًا: الصلة بين رؤية العالم والنظام المعرفي

ثمة صلة وشيجة بين طبيعة رؤية العالم وبين النّظام المعرفي، فرؤية العالم «تمثل إجابة عن الأسئلة النهائية حول الإله والإنسان والكون والحياة، ومن ثم تمثّل أساسا للنّظام المعرفي، وقاعدة عليها يؤسّس، ومنها ينطلق وليست هي النّظام المعرفي، وإن كان لا يخرج هو عنها، فهي أي: رؤية العالم الأصل وعليها يَنْبَني النّظام المعرفي، من ثمة لا يمكن اعتبارهما مترادفين»[(١)].

وبالفعل رؤية العالم أصل والنظام المعرفي فرع منها، ومعاني المفردات الناظمة للمعرفة تُشتَقُّ من رؤية العالم، والنظام المعرفي يحتوي بداخله مشكلات المعرفة من حيث تاريخها ومن حيث سؤال الحقيقة بين الاستحالة والإمكان؛ ومن حيث مصادر المعرفة، وأدواتها، وحقيقة الصّلة بينهما، ومن حيث أيضًا سؤال القصد في المعرفة، وأيّة منظومة

(١) نصر محمد عارف، مفهوم النّظام المعرفي والمفاهيم المتعلقة به، في: نحو نظام معرفي إسلامي، تحرير فتحي حسن ملكاوي، الأردن: المعهد العالمي للفكر الاسلامي، ٢٠٠٠، ص٢٧.

قِيَمِية تنضبط بها الممارسة المعرفية، أي أن رؤية العالم بلغة الفارابي يفيض عنها نظامًا معرفيًا ورؤية منهجية، وذلك بصورة متّسقة منسجمة من الدّاخل، والمتابع لسؤال المعرفة في تاريخ الفلسفة يلاحظ نشوء المذاهب السَّاعية للإجابة عن هذه الأسئلة حتىٰ جرىٰ التَّأريخ لحقبة فلسفية بأكملها هي حقبة: نظرية المعرفة في الفلسفة بما هي موضوعًا وتاريخًا.

ويمكننا رصد المحاور الكبرىٰ للنّظام المعرفي في:

- **سؤال الحقيقة بين الاستحالة والإمكان:** ومن الأسئلة المركزية في هذا المحور: هل الحقيقة ممكنة أم مستحيلة؟ هل ثمة حقيقة متعالية ثابتة ويجتهد الإنسان بأدواته الإدراكية من أجل بلوغها؟ أم أن الحقيقة هي لغة تخفي إرادة ذاتية ورؤية منظورية تريد أن تفرض معانيها علىٰ الأشياء؟ ما هو معيار الحقيقة؟ وهل ثمة معيار أصلًا للحقيقة يمكن اعتباره أساسًا يبنىٰ عليه غيره؟ أم أن معيار الحقيقة هو معيار التَّقابل أي أن الحقيقي هو ما له مقابل في الواقع؟ أم هو معيار التَّماسك فيما نراه لدىٰ الأنساق العلمية الفلسفية التابعة لها؟ أم معيار التَّطابق بدلالته الثنائية: تطابق الحكم مع تصورنا له؟ وتطابق الحكم مع الواقع؟ أم أن الحقيقة أفق ورجاء قد لا نبلغه في هذا العالم أصلًا؟

- **سؤال مصادر المعرفة:** يتعلق هذا الشطر المهم بمصادر المعرفة ومن أين يستقي الإنسان معارفه؟ هل الواقع الحسي وما يستتبع ذلك من قوانين وسنن موجودة في النظام الكوني؟ أم أن ثمة مصادر أخرىٰ للمعرفة تمد الإنسان بأجوبة تتعلّق بعالم الغيب؟ وهل هناك حدود للمعرفة؟ أم أنّ هناك مدة زمنية يصل بعدها العقل الإنساني إلىٰ اكتشاف القوانين العلمية بما أن الواقع موضوعي ومستقل عن الذّات العارفة، وقد نشأت مذاهب

في تاريخ الفلسفة سعت من أجل الإجابة عن هذه المسألة، فتفرقوا فرقًا شتىٰ من أجل إيجاد إجابة تُفسّر أصل الإدراك البشري وهل هو منتظمًا بمبادئ فطرية سابقة علىٰ التّجربة أم أنّ التّجربة والواقع الحسي هما اللذان يمارسان ضغطًا علىٰ الإدراك البشري ويتأثران به ويُنشئ منهما أفكارًا؟

لكن ضمن النّظام المعرفي أيضًا تتحدد وجهتان مختلفتان هما: وُجهة أهل الأديان السَّماوية، أي الذين يرون أن الوجود الإنساني في العالم الحالي أو المشهود، ما هو إلا مطية إلىٰ الآخرة، وأن هذه الدار ما هي إلا دار عبور يعبرها الإنسان إلىٰ مستقره في حياة أخرىٰ أبدية هي الحياة الآخرة، ومصدر معرفتهم عن الآخرة هو الوحي الإلهي الذي بلّغه الله ﷻ الإنسان عبر رُسله وأنبيائه عليهم الصلاة والسلام، أي أن «أهل الأديان لهم مصدران للمعرفة: **الأول هو**: الكون بأشيائه وأحداثه وظواهره، وبأبعاده المادية والبشرية والاجتماعية والنّفسية. أما **المصدر الثاني**: فهو الوحي الإلهي بما يضعه للناس من مبادئ وقيم لإقامة الحياة عليها، وبما يطلعهم عليه من أمور الغيب. وعلىٰ عكس أتباع الأديان يوجد ثمة أناس لا يؤمنون بالوحي الإلهي، ولا يصدقون بأية معرفة تتجاوز خبراتهم الحياتية وإحساساتهم المادية وجهودهم البشرية»[(١)].

• **سؤال المنهج في المعرفة**: ومدار هذا العنصر من النّظام المعرفي حول سؤال: أيُّ المناهج أقوم لبلوغ الحقيقة وترجمة الظواهر بمختلف

(١) فتحي حسن ملكاوي، طبيعة النظام المعرفي وأهميته، ضمن كتاب: نحو نظام معرفي إسلامي، تحرير فتحي حسن ملكاوي: الأردن: المعهد العالمي للفكر الاسلامي، ٢٠٠٠، ص٣٠.

طبيعتها؟ هل يكون منهج الرصد التجريبي بعناصره المعهودة: الملاحظة والفرضية والتجربة الاستقرائية والقانون والتَّرييض، مسالك آمنة لبلوغ الحقيقة، أم أن ثمة خصوصية لظواهر دون أخرىٰ بسبب احتواء بعض الظواهر علىٰ أسرار أو خصائص قد يكون من غير المناسب تنزيل المناهج التجريبية عليها؟ هل ثمة وحدة علىٰ مُستوىٰ المنهج بين الطَّبيعيات والإنسانيات؟

ففي الرؤية المادية تجري الثقة في العقل الإنساني باعتباره أداة للتّحسيب والتّجريب، وإدراك الواقع الموضوعي المادي، وتسجيل معطياته بكل أمان وانطباع، إنها النّظرة التبسيطية الاختزالية التي عرفت دعامتها النّظرية في فيزياء نيوتن، إنها منظومة الاختزال والبساطة، التي تسعىٰ إلىٰ رد المتنوع والمتعدد إلىٰ وحدته البسيطة المادية، إن المنهج هنا نظام لإنتاج الحقيقة، ومن أوصافه: الإثبات التجريبي، التفسير والشرح المنطقي، الحياد القيمي، الجزئية والتراكمية، التركيز علىٰ الواقع الموجود، العملية والقابلية للتّطبيق»[(١)]، أما إذا استند المنهج إلىٰ دعامة أخرىٰ يدخل فيها عنصر الغيب، فإن المنهجية تختلف مضامينها ووجهتها، فيقوم علىٰ رفض النهايات الفلسفية للمحدّدات النّظرية والمنهجية ثم العمل علىٰ توظيفها ضمن الإطار الفلسفي لجدلية الغيب والإنسان والطّبيعة بمنظور كوني، باعتبار أن هذه المحدّدات النّظرية هي من شروط ومتعلقات القراءة الثانية بالقلم في الجمع بين القراءتين علىٰ أن نستوعبها

(١) نصر محمد عارف، ابستمولوجيا السياسية المقارنة، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات النّشر، ٢٠٠٢، ص١٦.

أولًا ثم نتجاوزها ثانيًا»[١].

جَلِيٌّ إذن العناصر المركزية النّاظمة للنظام المعرفي، الذي يستمد هويته ومضمون عناصره من رؤية العالم.

ويمكننا النظر لرؤية العالم من حيث توزعها علىٰ مجموعات أساسية عبر بيان أن «البنية المبدئية لمفهوم النّظرة إلىٰ العالم تتكون من ثلاث موضوعات أساسية، هي تصوراتنا للموجودات في العالم، وتصوراتنا لأسلوب المعرفة، وتصوراتنا للقيم المجتمعية التي تحدد كيفية عملنا في المجتمع، وهذه المجموعات الثلاث من التصورات، في أي نظرة إلىٰ العالم، لا تكون منفصلة فيما بينها، ولا يمكن أن تتعارض إحداها مع الأخرىٰ»[٢].

عتبة للقراءة

(١) محمد أبو القاسم حاج حمد، جدلية الغيب والإنسان والطّبيعة، بيروت: دار الهادي، ٢٠٠٤، ص٢٩.

(٢) سمير ابو زيد، العلم والنّظرة العربية إلىٰ العالم، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٩، ص٢١.

الفصل الأول

الإجابة الإسلامية

على أسئلة الرؤية الكونية الستة

عينة للقراءة

السؤال الأول

ما طبيعة عالمنا؟ ولماذا يوجد شيء بدلًا من شيء آخر؟

اختلف النَّاس في الإجابة عن سؤال طبيعة العالم وحقيقته، وتجاذبته التَّفسيرات والافتراضات، فما بين قائل بأنَّ العالم والوجود مجرد نتاج للتَّجربة الفكريَّة الإنسانيَّة، وبين قائل بأنَّ الوجود هو المادَّة الأزليَّة الَّتي ينتهي إليها كلُّ شيء في الوجود، وبين قائل بأنَّه وليد الصِّراع بين آلهة شتَّىٰ يحكم كلٌّ منها بعض ظواهر الكون ومكنوناته، إلىٰ غير ذلك من التَّفسيرات الَّتي ترتبط في حقيقة الأمر بمنظومة فكريَّة -ودينيَّة أحيانًا- توجِّه نظر الإنسان ورؤيته حول الكون لسياق معيَّن.

في الرُّؤية الإسلاميَّة للعالم نرىٰ فصلًا واضحًا في الاشتغال والاهتمام بين الاعتقاد والأساس الدِّينيِّ والفكريِّ وبين تفسير طبيعة العالم وحقيقته، فالإسلام لا يفرض منظورًا معيَّنًا للعالم له منطلقات أو ارتباطات دينيَّة تقيد رؤية الإنسان لطبيعة العالم وحقيقته، وهكذا يتعامل الإسلام دائمًا مع الكثير من الأدوات والمنتجات المعرفيَّة، وخصوصًا ما يتعلق منها بالتَّفكير والفطرة والتَّجربة، فعمل المنظومة الإسلاميَّة لاحق علىٰ الإقرار بحقيقة المعرفة الإنسانيَّة وانضباطها واعتبار أدواتها الصَّحيحة، بعبارة أخرىٰ: **الإسلام يثق في العقل الإنسانيِّ وفي التَّجربة والرُّؤية والرَّصد الإنسانيِّ للكون**، وهو يبني علىٰ ذلك منظومته الدِّينيَّة كلَّها، ولا يهتمُّ -كثيرًا- بالتَّعمق في الجدل المتعلِّق بمدىٰ صحَّة المعرفة

عينة للقراءة

العقليَّة ومدىٰ قدرة التَّجربة علىٰ توليد المعرفة، نعم نحن يمكننا أن نستخرج نسقًا فكريًّا متكاملًا ومنطقًا وفلسفة فكريَّة إسلاميَّة، ولكن سيبقىٰ هذا أيضًا منفصلًا عن جوهر الدِّين ومتعلَّق الرِّسالة، وليس لها منه إلَّا الإقرار والتَّجديد والإحياء، وليس التَّأسيس والابتداع، فالإسلام رسالة هداية من الله ﷻ أُنِيطَتْ بالعقلاء من الناس، وخاطبت عقولهم بشتَّىٰ الوسائل والحجج الملزمة، واستخدمت أدوات أنتجها **الحس والعقل والخبر الصادق، يسهل انقياد الإنسان للحق الناتج منها ارتكازًا علىٰ الفطرة الإلهية المودعة في نفسه، وهي قابليته للحق والخير.**

هذا التَّوضيح بالغ الأهمِّيَّة ووثيق الارتباط برؤية الإسلام للعالم، إذ إنَّ ما قدَّمناه يقتضي بساطة الرُّؤية الإسلاميَّة لطبيعة العالم وكنهه بعيدًا عن الجدالات العقيمة الَّتي تتناول رؤية العالم من منظورات فلسفيَّة أو خرافيَّة هي بطريقة أو بأخرىٰ تتجاوز المنظور البسيط الواقعيَّ للعالم.

والغاية الكبرىٰ من تناول الوحي لطبيعة العالم هي الاحتجاج بالعالم المحسوس علىٰ وجود الله خالقه واستحقاقه لأن يأمر فيطاع ويعبد فلا يشرك به.

قال الله تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فما هي طبيعة العالم حولنا من وجهة النَّظر الإسلاميَّة أو وجهة النَّظر الواقعيَّة، وما هي غاية القرآن من سرد التفاصيل العامة لطبيعة العالم؟

- يمكننا الإجابة عن ذلك بأن نقول بأنَّ العالم هو الكون المادِّيُّ المشاهد حولنا، خلقه الله جَلَّ جَلاله، وبثَّ فيه روح الحياة، قال

الخاتمة

إن ثمرات كثيرة قد جنيناها وحقائق هامة قد وقفنا عليها في هذا الكتاب عن رؤية العالم وإجابة الأسئلة الوجودية الكبرىٰ مع اعتماد الأدلة العلمية والموضوعية اللازمة واختيار ما تثبت به الأدوات صحته، ومن فوائد ذلك هو سحب المرجعية والأصالة من المناهج الفلسفية والغربية والتي تتناول رؤية العالم من منظورات فلسفيَّة جدلية عقيمة أو خرافيَّة هي بطريقة أو بأخرىٰ تتجاوز المنظور البسيط الواقعيَّ للعالم، ووضع هذه المرجعية والأصالة في محلها الصحيح في الكتاب الكريم والسُّنّة المطهرة وكل ما وراء هذين المصدرين من التقريرات، فهو موزون بهما معروض عليهما محكوم عليه بأحكامهما، كما قال الحق ﷻ: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النِّسَاء: ٥٩].

ولعل هذا الأصل المنهجي الأخير هو أهم ما يميز هذه الدراسة عن غيرها، وهي اعتماد الأدوات العلمية والموضوعية الصحيحة واللازمة وما تثبت به الأدوات صحته، ولذلك تكلمنا عن أهمية الوعي وبنائه والمعرفة وما يتعلق بها والسلوك الصحيح لفهم الإنسان لنفسه جيدًا، لكي يتعامل الإنسان بحكمة وكفاءة ووضوح بعيدًا عن الجدالات الوهمية والخرافات، وتتضح الصورة جيدا له، وذلك كله قد تناولناه وتحدثنا عنه من أول التعريف بطبيعة العالم وكيفية نشأته والغاية من ذلك والمصير وغير ذلك

عبد الرزاق

ومن ثم أجبنا علىٰ الأسئلة الوجودية الكبرىٰ التي تشغل فكره، معتمدين بذلك علىٰ الأدلة العلمية الصحيحة والرؤية العلمية الصحيحة من علوم الدين والدنيا والعالِم الحق هو من يجمع بين الرؤيتين ولذلك لا يوجد أي مبرر لافتراض تناقض بين الدين والعلم، ولا بين المتخصصين بهما والاعتماد عليهما فالتعلم الحق لهذه المسائل هو الذي يقود المرء لاستقامة حياته وسيرها عن النهج الصحيح، وقد ذَمَّ الله ﷻ الناس الذين لا يعلموا إلا في أمور دنياهم يعيشون في طلب الحياة الدنيا، وهم عن أمر آخرتهم غافلون، كما في قوله تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]. أيْ: أَكْثَرُ النَّاسِ لَيْسَ لهم علم إلا بالدنيا وأكسابها وشؤونها وَمَا فِيهَا، فَهُمْ حُذَّاقٌ أَذْكِيَاءُ فِي تَحْصِيلِهَا وَوُجُوهِ مَكَاسِبِهَا، وَهُمْ غَافِلُونَ عَمَّا يَنْفَعُهُمْ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ، كَأَنَّ أَحَدَهُمْ مُغَفّل لَا ذِهْنَ لَهُ وَلَا فِكْرَةَ (ابن كثير)، ومحط الذم هو جملة ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾، فأما معرفة الحياة الدنيا فليست بمذمة بحدِّ ذاتها؛ لأن المؤمنين أيضًا يعلمون ظاهر الحياة الدنيا، وإنما المذموم أن المشركين يعلمون ما هو ظاهر من أمور الدنيا، من متع، وملاذ، وشهوات، وحريات مطلقة، وينسون عاقبة ذلك في الآخرة، ولا يعلمون أن وراء عالم المادة عالمًا آخر، هو عالم الغيب، وغير ذلك فإن كثير من العلوم الدنيوية والتي يطلق عليها علم فالكثير منها غير مثبت أو افتراضي ولك أن ترجع إلىٰ كثير من النظريات التي اتضح خطؤها فيما بعد، فيجب هنا الوقوف علىٰ الأدلة الصحيحة من العلوم المتناولة وما تشابه فيرد إلىٰ الله ورسوله فهو الدين الصحيح بكل ما جاء فيه، فكتاب الله تعالىٰ وسنة رسوله ﷺ هما الميزان الأكبر الذي تعرض عليه الأمور، ولا يعرضان هما علىٰ غيرهما، فهما الحق الذي لا شك فيه ولا خلل،

عينة للقراءة

وبهما تقاس الأشياء ولا يقاسا هما بشيء فهما النور الذي أنزله الله تعالىٰ ليهتدي بهما الناس، ورؤية العالم الإسلامية والواقعية تتضمن مجموعة من العناصر التي يقوم علىٰ رأسها الإيمان بالله الواحد الخالق المدبر لشؤون مخلوقاته، وأنه سبحانه أرسل الرسل والأنبياء لهداية البشر إلىٰ ما فيه استقامتهم ونفعهم، وأن الله ﷻ مالك المُلك والمتصرف، بيده الأمر، وإليه الحكم، خلق عباده وحَمَّلهم الأمانة وامتحنهم لعبادته كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [الملك: ٢]، وأمرهم بطاعته فهو سبحانه المستحق للعبادة والخضوع والطاعة كما قال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١-٢٢]، والله ﷻ هو الغني عن العباد، لا يحتاج لعبادتهم، ولا يفتقر لطاعتهم، ورغم ذلك؛ فالعلل والأسباب الموجِبةُ للعبادة كثيرةٌ جدًّا أولها خَلْقُ الله تعالىٰ للعباد وتمكينهم في الدنيا وتسخير الكون لهم، مما يوجب علىٰ الخلق العبادة هذا هو مقتضىٰ أسمائه الحسنىٰ وصفاته العلا، فمن كمال ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته أن يُعبد ويُوحد ويُمجد ﷻ، كما تكلمنا عن مصير الإنسان والقيامة والحساب والجزاء والعقاب والجنة والنار، وغير ذلك مما فصلناه سابقًا، وهذا السياق المتواصل من السؤال والدعوة إلىٰ التفكر والتأمل غرضه في النهاية أن تصل إلىٰ الله ﷻ، فالبحث عن الحق والسؤال عن الغاية من وجود الإنسان وتمكينه هي فطرة فطره الله عليها، لكي يصل إلىٰ الحق ويقبله، قال الله ﷻ: ﴿فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠]، أي: خلَقَهم عليها، وهي: البحث عن الحقِّ

وقبوله، وتمكُّنهم مِن إدراكِه. فيتمحور المقصد الأساسي من التفكر والتدبر حول التأمل في عظمة الله ﷻ وسننه الكونية والشرعية والتماس الوعظ منها في المواضع التي تناولت قضايا التوحيد والتركيز علىٰ استحقاق المدبر ﷻ للألوهية وتنزهه عما سواه أو التي تركز علىٰ تعجبه ﷻ من المشركين الذين انصرفت عقولهم وتفكيرهم عن نعم المنعم التي تحوطهم ويتجلىٰ فيها كمال الواحد القدير جَلَّ جَلاله، والآيات الدالة علىٰ ذلك كثيرة منها: قول الله ﷻ:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ١٦٤].

﴿فَلْيَنظُرِ ٱلْإِنسَٰنُ إِلَىٰ طَعَامِهِۦٓ ﴿٢٤﴾ أَنَّا صَبَبْنَا ٱلْمَآءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا ٱلْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٧﴾ وَعِنَبًا وَقَضْبًا ﴿٢٨﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٢٩﴾ وَحَدَآئِقَ غُلْبًا ﴿٣٠﴾ وَفَٰكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣١﴾ مَّتَٰعًا لَّكُمْ وَلِأَنْعَٰمِكُمْ﴾ [عبس: ٢٤-٣٢]

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا تُغْنِي ٱلْأٓيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ﴾ [يونس: ١٠١].

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَأٓيَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ١٩٠].

﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

عينة للقراءة

﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ إِنَّهُۥ خَبِيرٌۢ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ [النَّمْل: ٨٨].

وقد جاء ذكر **آيات التأمل في القرآن** لتؤكد علىٰ أهمية التفكر في الكون لزيادة المعرفة وجعل المتفكرين أكثر وعيًا واستيعابًا لما حولهم من خلق الله، ومن ثم مساعدتهم علىٰ التيقن من وجود الخالق ﷻ والاعتراف بعظيم قدرته وطاعته سبحانه واتباع الرسل، وقد أنزل الله تعالىٰ المعجزات الدالة علىٰ صدقهم وكل نبي له معجزة، ومعجزة النبي ﷺ القرآن وغير ذلك مما حدث في حياته ﷺ، وقد تكلمنا في هذا البحث كذلك عن أدلة وبراهين وجود الله ﷻ وبراهين النبوة والدلائل والكتب في ذلك لا تحصىٰ لمن أراد الاستزادة والتفصيل.

ونهاية، أختم بقول الله ﷻ في كتابه الكريم:

﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [آل عِمْرَان: ١٩١].

والحمد لله رب العالمين.

عينة القراءة

قائمة قراءة للتوسع

(١) العقيدة الإسلامية، الصادق الغرياني.
(٢) دلائل فصول في النبوة وصحة الإسلام، محمد سمير.
(٣) قانون التأسيس العقدي، سلطان العميري.
(٤) الدين، محمد عبد الله دراز.
(٥) الدليل إلىٰ القرآن، عمرو الشرقاوي.
(٦) النبأ العظيم، محمد عبد الله دراز.
(٧) تثبيت حجية السنة، أحمد يوسف السيد.
(٨) الأخلاق والتصوف، حسن الشافعي، وأبو اليزيد العجمي.
(٩) براهين في مواجهة الملحدين، أحمد ناجي السعيد.
(١٠) منهجية إثبات صحة دين الإسلام، محمد شاهين.
(١١) منهجية الوصول إلىٰ الحق، محمد شاهين التاعب.
(١٢) براهين وجود الله، سامي عامري.
(١٣) براهين النبوة، سامي عامري.
(١٤) العلموية، سامي عامري.
(١٥) ردود علماء الغرب علىٰ الإلحاد المعاصر، عبد الله السويدي.
(١٦) زخرف القول، فهد العجلان وعبد الله العجيري.
(١٧) أسلمة العلمانية، فهد العجلان.
(١٨) العواصم، فهد العجلان.
(١٩) العلمانية، سامي عامري.
(٢٠) الإسلام بين الشرق والغرب، علي عزت بيجوفيتش.

عينة القراءة